

الفهم الفلسفي للتوراة على الأخلاق للأستاذ عبد العزيز عزت

سيدى الأستاذ الزيات

قرأنا بإعجاب فى الرسالة النراء ما كتبتموه ، وما سطره
أساتذة الأدب العربى فى الثورة على الأخلاق ، فأكبرنا فيكم
نزعكم إلى تأييد الفضيلة بهذا الأسلوب . وقد لاحظت بجوار
ذلك غياباً نسبياً للفهم الفلسفى فى ذلك الحوار الأدبى ، مع أن
الموضوع يمت إلى صميم الفلسفة بصلة وصلات . لهذا دعانى
الواجب الفلسفى أن أحرر هذه الكلمة لعلها تلقى بعض الضوء
من هذه الناحية على هذا الموضوع :

فهم بعض الناس فى مصر الثورة أنها النزاع بين وجهتى
نظر متناقضتين ؛ فهناك أنصار القديم ، وهناك المجددون ؛ وهناك
رجال الدين ، وهناك « المستغربون » ؛ وهناك أصحاب الفضيلة ،
وهناك « المسترذلون » . نزع « الثنية » هذه Dualisme

وأرقى حكومات العصور الوسطى ؛ وكانت الحضارة الأندلسية
فى سائر نواحي الحياة العامة والخاصة مضرب الأمثال فى الروعة
والبهاء ؛ وكانت نبراساً تمتد أضواؤه إلى أقاصى أوروبا ؛ وكان
للزهراء عاصمة الناصر وبلاطه فى الأمم الشمالية شهرة سحرية ،
حتى أن الراهبة السكسونية هروسويتا تنفت بجمالها وروعتهما فى
قصائدها اللاتينية وأسمتهما « زينة الدنيا » (١)

والخلاصة أن عظمة الأندلس يمكن أن تقرأ فى هذه الصفحات
الطوية من تاريخ العلاقات الدبلوماسية بينها وبين الأمم الأوروبية
أكثر مما تقرأ فى تاريخها الخاص : فى هذه الصفحات نجد
صوراً كثيرة مؤثرة من ذلك الاجلال الذى كانت تفرسه الأندلس
إبان عظمتها على أمم الغرب والشمال

محمد عبد الله عنانه

(١) دوى - (الطعة الأولى) ج ٣ ص ٩٠ - ٩١

فى تصور الشئ وضده ، هي نزع « حرية » لا تلقى بطبيعة
التفكير جرتها علينا من بعيد الحضارة الفارسية التى يسودها
مذهب زرادشت Zeroastre فى كتابه الأفستا Avesta الذى
يقول بتنازع قوة الشر « أهرمن » وقوة الخير « أهورا » .
وكذلك جرتها علينا - فيما أرجح - من قريب مبادئ
الثورة الفرنسية فى تصور معنى الحرية والاستقلال ؛ فهناك
ابن الوطن Le citoyen من ناحية ، وهناك الملك من ناحية
أخرى ؛ ذلك لأن التفكير فى ذاته وسيلة سلبية هادئة لخلق
« التماسك » فى عقلية الفرد ، وخلق التماسك فى عقلية
المجتمع ؛ وهذا التماسك هو الانتقال من حالة نوعية إلى حالة من
نفس النوع يجوز لها التخصيص . فكل ثورة هي نهاية ظاهرة
لحالة تطورهادى سبقت ، وتضمنت هذه الثورة ؛ ففى إذاً حاضر
لماض سبق قد مهد لها ، وهى حاضر كذلك لمستقبل يأتى ، تمهد
هى له . الثورة فى نظر الفيلسوف الألماني شيلنج Schelling
لا يمكن أن تنفصل عن التطور وعناصره الثلاثة : الماضى ،
والحاضر ، والمستقبل . (التطور هنا لا يقصد به نظرية داروين
وسبسر التى أثبت خطأها أستاذنا الفيلسوف لالاند Lalande فى
كتابه : « خداع التطور » Les illusions évolutionistes ؛
وإنما التطور الذى نزل من فلسفة أفلاطون وقالت به المدرسة
الألمانية الحديثة وخاصة هيجل Hegel وشيلنج Schelling وهو
التطور المنطقى لمظاهر التاريخ عامة) . فالثورة بهذا الفهم هى عنصر
أكيد للسلام والتقدم

ولنأخذ مثلاً ثورة أفلاطون فى العهد القديم . هذه الثورة
كما يحدثنا الفيلسوف الألمانى زلر Zeller فى كتابه « فلسفة أهل
اليونان » الجزء الأول - جمعت بين الفلسفة الطبيعية التى سادت
التفكير اليونانى إلى ما قبل سقراط ، وجمعت الفلسفة المنطقية التى
وجدت فى عصره عند السوفسطائيين ، وكذلك الفلسفة الأخلاقية
التي قال بها سقراط ، ففيها يلتئم عنصر الماضى وعنصر الحاضر
وكذلك عنصر المستقبل ، لأن فلسفة أفلاطون ضمنت الحياة
للفلسفات المنطقية والأخلاقية من بعده ، الأولى فى تلميذه أرسطو
والثانية فى زعيم الرواقين كريسippe Chrysippe ومن أخذ عن
هذين الفيلسوفين إبان القرون الوسطى من عرب ، ورومان ،

ولكننا نوجهه إلى الأساتذة أصحاب الفضيلة فنقول :

الثورة في مجال الأخلاق لا تبني على إنكار الفضائل ، وتجاهل أمر الثورات الأخلاقية في تطور التفكير البشرى ، ولكن على علاقة الفضيلة بالردية أولاً ، وعلى استمرار التصور التوعوي للفضيلة في الثورات الأخلاقية

(١) أما عن تحديد علاقة الفضيلة بالردية فلا يمكن البحث عنها خارج فلسفة الرواقين ، لأنه أعظم مبدأ أخلاق وجد إلى الآن في تطور التفكير الإنساني ، وذلك لأنه قضى على مبادئ الأخلاق التي تقدمته بتعاليمه السامية . فبينما سقراط يجتهد أن يتخذ من الأخلاق سبيلاً لتقييد حرية الفرد وإخضاعه للدولة الحاكمة في المجتمع اليوناني ، نرى أفلاطون يفترض السوء في طبيعة الإنسان ويجتهد بعد ذلك أن يرفعه إلى قداسة عالم المثل . كذلك أرسطو فهو يميز وينوع بين خلق الله فيقر الرق والاستعباد ، ويضع أخلاقه للسادة من الناس ، والأرستقراطية التي قضت مباشرة على مبادئه وأضحى فكره ميتاً بعد حروب الاسكندر الأكبر ، لأن المجتمع اليوناني في ذلك الزمان أصبح في حاجة ماسة لمن يخاطبه بلغة قليلة التجريد — أقرب إلى الواقع منها إلى الخيال ، يتحقق خلالها ذلك الفهم الواسع الذي أدركه اليونانيون باحتكاكهم بعد تلك الحروب بسائر الأمم الأخرى ، لهذا لاقت تعاليم الرواقين نجاحاً عظيماً وخاصة تعاليم كريسب Chrysippe (اقرأ كتاب أستاذاً أميل برهيه Emile Bréhier وعنوانه كريسب في مجموعة ألكان Alcan لكبار الفلاسفة) لأنها ألقت الرق ، وجعلت الناس سواسية كأستنان المشط أمام القانون الأخلاق ، وافترضت الخير في طبيعة الإنسان . وأهمية هذا المذهب لا تقف عند هذا الحد لأنه ساد بعد ذلك كل العالم الروماني ، وعالم القرون الوسطى في أوروبا خلال آباء الكنيسة . والأمم من ذلك أخيراً أن زعماء الفكر الحديث عندما كتبوا في الأخلاق تأثروا بالرواقين ، فمثلاً ديكارت في خطابه مع البرنيسيس الزايت ، وسبينوزا Spinoza في كتاب « الأخلاق » ، وكانت Kant في كتابه عن الأخلاق فالرواقيون آباء الأخلاق لم يتكروا في ثورتهم الفضائل ولم يخسوا كذلك الرذائل حقها وما لها من أهمية في الحياة ؛ غير

ومسيحيين . وهكذا بعد أن كانت الفلسفة المنطقية من قبل أفلاطون سبيلاً للشعوذة والسفسطة والترثرة ، أصبحت فلسفة محترمة تنفي إقامة العلم والبحث عن الحقيقة المجردة . كذلك بعد أن كانت الفلسفة الأخلاقية من قبله وسيلة لإخضاع الفرد في المجتمع اليوناني أو الدولة الحاكمة ، أضحت سبيلاً لتحريره وتقوية إرادته

ومثل آخر في العهد الحديث : ثورة كانت Kant الألماني فهي قد جمعت بين تيار الماضي — بالنسبة إليه — وهو تيار فلسفة ديكارت Descartes حينما يتكلم عن ملكات العقل ، وتيار الحاضر — بالنسبة إليه — وهو تيار الفلسفة الإنجليزية الممثل في فلسفة دافيد هيوم David Hume ، لأن (كانت) نفسه يقول إن هيوم « أيقظه من سباته الفكري » . ونجد أثر هذا ظاهراً عند ما يتكلم كانت في أثر الحواس في نظرية المعرفة ؛ أما عنصر المستقبل فهو أن كانت Kant كفل الحياة من بعده لفلسفات تنطق نارة باسم العلم مثل فلسفات أوجست كنت ، وكورنوه Cournot ، وفلسفات تنطق باسم المنطق والإلهيات مثل فلسفة لاشليه Lachelier ، وفلسفة بوتروه Boutraux (اقرأ كتاب أستاذاً العلامة الكبير لاسباكس Lasbax أستاذ الفلسفة بجامعة كليرمون ، ورئيس المجلة الدولية للمعلوم الاجتماعية ، والسكرتير السابق للوزير بران Brian ، وعنوانه : « المنطق وتطور العالم »

وعليه فالثورة في التفكير هي عنصر للسلام أي التوفيق بين الماضي والحاضر الفكري ، ومظهر للتقدم ، أي يجب أن تكفل خلق تيارات جديدة للفكر في المستقبل .

أما الآن فلتتحدث عن الثورة « الأخلاقية » . الثورة في مجال الأخلاق تتضمن الإقرار بوجود هذا المجال ، وتمييزه في نفس الوقت عن المجالات الأخرى كمجال النفس والاجتماع والمنطق ، والإقرار كذلك بأن له طبيعة خاصة وأصولاً للتفكير فيه ، وإلا أصبح البحث عبثاً ، والجدال رغاء ، وقلبت الأوضاع ، وأنكر التاريخ ، وجحدت المجهودات القائمة للفلاسفة . فنحن إذ لا نوجه كلامنا إلى أصحاب الردية الذين يخسوا الفضائل حقها .

أن يفعله الانسان في يومه ، والتحقير من أهمية الماديات لتغير قيمتها بتغير الأشخاص والأزمان والأصقاع ، فهي أشياء عارضة ، وينبني الزهد فيها ، والاعراض عنها ، فهي أخلاق تهتم بتخفيف وطأة الرذيلة

وأخلاق تسميها « داخلية » تبني على رياضة الارادة ، أساسها ضبط النفس وغرضها الوصول إلى الخير المطلق ، ونجدها في كتاب شيشرون المسمى De finibus ، وهي ما يصح تسميتها كذلك بلغة العلم الحديث « أخلاق نظرية » ترمي إلى خلق الانسجام بين إرادة الوجود في الفرد ، وإرادة الوجود في العالم ، وإرادة الوجود في المجتمع

كذلك الاستعراض النوعي للفضائل في ثورات الأخلاق ، يدل دلالة واضحة على أن هذه الثورات لم تكن حرباً على الفضيلة ولم تكن للحط من قيمة الانسان إلى قدر هو أرفع منه ؛ وإنما كانت برداً وسلاماً عليها ، ترسم سبل الوصول إليها وامكان تحقيقها : فالثورة اليونانية الأخلاقية كما يذكر الفيلسوف بوتروه في كتابه (مسائل في الأخلاق والتربية) كانت ترمي إلى رفع الانسان إلى القداسة العقلية بحيث يصبح العالم بيتاً للانسان والآلهة (أنظر كذلك شيشرون « طبيعة الآلهة ») . ويتحقق حلم الرواقين في خلق مدينة العقلاء فيسود السلام على الانسانية ، بإحسان كل إنسان إلى أخيه فلا يبقى هناك فضل « ليوناني » على أجنبي

والثورة الدينية في الأخلاق : إبان القرون الوسطى ومثلها فيلون الاسكندري في اليهودية ، والغزالي في الإسلام ، والقديس أوغسطين في المسيحية ، تنلخص كلها في تلك النزعة القديمة الشرقية التي اقتص بها الجنس السامي وهي فكرة الخطيئة الأولى وما تتطلبه من التحلي بالفضائل كوسيلة لا تقاذ خلق الله من وصمتهم والموذ بهم إلى جنات الخلد والنعيم (أنظر كتاب منك Munk « في الفلسفة العربية واليهودية » ، وكذلك كتاب أستاذنا العلامة جيلسن Gilson بالكليج دي فرانس وعنوانه : « المسيحية والفلسفة »

أنه يستحيل في نظرهم فصل الاثنين عن بعضهما ، لأن الانسان مركب من روح وجسم — وهي البداهة كلها — فله شهوات تدعو إلى الرذيلة ، وله غايات روحية سامية يريد تحقيقها ؛ غير أن الشهوات والميل إلى الرذيلة ليست بطبيعية في الانسان ، فالانسان كأساس خيّر بطبعه ، ولكن الحياة الخارجية المادية ومغرياتهما هي التي تفسد عليه داخلته ونفسه الطاهرة . ولما كان أغلب الناس لا يمكنهم التضحية بمغريات الحياة الخارجية ، اضطر الرواقيون ألا يتجاهلوا أمر الرذيلة وأثرها في التخلق فحسبوا لها حساباً بل جعلوا منها ضرورة لازمة للفضيلة ؛ ويقدمون لذلك ثلاث حجج ، (يجدها القاري في كتاب أستاذنا برهيه Bréhier والأستاذ بيفان Bevan)

أولاً — حجة بالمقارنة ؛ فالرذيلة تابعة للفضيلة وشرط أساسي لها ؛ ويضربون لذلك مثلاً جمال رأس الانسان الذي يتضمن في نفس الوقت نوعاً من الضعف هو رقة عظامه وتعرضه في أي لحظة للأخطار الطارئة ، فاذن نيس هناك جمال خالص من ضعف أو قبح يشوبه ، كذلك (ut...sic) ليس هناك فضيلة خالصة ولا بد للرذيلة أن تلازمها فهي ضرورة لها

ثانياً — حجة منطقية : تتلخص في أن التقيضين متضامنان ؛ فالخير يتضمن الشر في تصوره ، والحسن يتضمن القبيح في إدراكه ، والفضيلة تتضمن الرذيلة وهلم جرّاً ...

ثالثاً — حجة أخلاقية : بقول الرواقين : الرذيلة ليست من طبيعة مغايرة للفضيلة ، فكلاهما من نوع واحد . وليست الرذيلة هي حرباً على الفضيلة ، وإنما هي فضيلة ضالة ، والعقل في تصورها وفعلها خاطيء ، وهمة الأخلاق هي العودة بما ضل إلى الطبيعة الخيرة الأولى

هذا الفهم للعلاقة بين الفضيلة والرذيلة اضطر الرواقين إلى تصوير نوعين من الأخلاق : أخلاق لا يصح أن نسميها « خارجية » نجدها في كتاب « الواجبات » لشيشرون ، وهي تختص بمغريات الحياة الجارية وتبني على ما يجب فعله وما لا يجب

الرسالة في سنتها السادسة

على الرغم من ارتفاع أثمان الورق هذا الارتفاع الفاحش ،
والرغم من تقدم الرسالة هذا التقدم المطرد ، وبالرغم مما سبذله
في تحسينها من الجهد في عامها الجديد ، سيدي اشتراكها كما هو :
ستون قرشاً في الداخل ، وجنيه مصري في الخارج ، وتقدم
إلى من يدفعه في أثناء شهر يناير المقبل مجلة الرواية مجاناً

الرواية

وليست الرواية هدية ضئيلة القدر ، فإنها تصدر جميلة الطبع
والوضع في سبعين صفحة ، وهي المجلة الوحيدة التي تقرأ فيها
القصة المرية الفنية مكتوبة بأسلوب يليق مشرق ، أو القصة
الأوربية الرائعة مترجمة بلسان أمين صادق . وحسبك دليلاً
على قوتها وقيمتها أن مجموعة سنتها للنصرمة تشمل على ٣٤
أقصصة موضوعية ، و ١١٦ أقصصة منقولة ، وثلاث
مسرحيات ، وعلى النص الكامل لكتاب اعترافات فتى المصر
لألفريد دي موسيه ، وملحمة الأوديسة لهوميروس ، وكتاب
يوميات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم . أما مجموعة السنة
القادمة فتستكون أروع وأجمع وأكث . واشتركا وحدها
ثلاثون قرشاً في مصر ، وخمسون في الخارج

اشتراكات الطلبة والمعلمين الإلزاميين

يشترك الطلبة والمعلمون الإلزاميون في الرسالة وحدها
بأربعين قرشاً ، وفي الرواية وحدها بعشرين قرشاً ، وفيهما معاً
بخمسة وخمسين قرشاً ويضاف إلى ذلك خمسة وثلاثون قرشاً
فرق البريد لاشتراكات الخارج . ويجوز أن يقسط هذا المبلغ
أقساطاً كالتبديء في يناير وتنتهي في شهر مايو من سنة ١٩٣٨
الاشتراك في الرسالة : بقوى عقلك ، وبمضى

ثقافتك ، ويطلعك على تطور الفكر العالمي الجدير

والاشتراك في الرواية : يربى ذوقك ، ويرهف

شعورك ، ويمتلك بروائع الفن القصصى الحديث

ثم جاءت بعد ذلك الثورة الحديثة في الأخلاق تقيم الفضائل
وتناصرها ولكنها تفهمها بشكل آخر جديد ، فبينما نجد القداسة
العقلية عند اليونان ، والقداسة الربانية عند اليهود والمسلمين
والنصارى ، نجد القداسة العملية النفعية عند الإنجليز في شخص
هز Hobbs ومدرسة بنتام Bentham ، وميل Mill ، وسبنسر
Spencer) أنظر جيو Guyau الأخلاق عند الإنجليز وأيضاً
سبنسر التطور والأخلاق

أصبحت الأخلاق عندهم تهتم بالحياة الجارية وتتأثر بالفهم
الرياضي فأصبحت « حساباً للذات » من وجهات الكم والكيف ،
والبقاء ، والزوال ؛ وأصبح الفرد وأمانته محوراً للأخلاق .
ظهرت ثورة أخلاقية جديدة في ألمانيا هي ثورة كانت Kant تذكرنا
بآراء الرواقين في العهد القديم لأنها تركز على فكرة الواجب
L'idée du devoir المجرد عن الغايات النفعية والأغراض
العارضة ، وأن الإنسان في مخلقه يجب أن ينظر إلى ثلاثة أفكار :
أولاً : أن يكون المخلوق واحداً لكل الناس . ثانياً : أن يحترم
الإنسانية في شخصه . ثالثاً : أن يتخلق وأن يعلى على نفسه
مخلقه دون أن يخضع في ذلك إلى مؤثر ما . لهذا كانت نهاية ميده
الإرادة الحرة (أنظر دلبوس Delbos فلسفة كانت Kant

ونحن بعد هذا لا نريد أن نمدد الأمثلة أكثر من ذلك
لنثبت أن للأخلاق والثورة عليها أو فيها طابع وأصولاً ومبادئ
لا تبرر مطلقاً ماذهب إليه الثائرون . لهذا غضبت النفوس الكريمة
وناصرت الفضائل التي هي السبيل الوحيد لوجود الضرر كذكر ،
لأن ديكرت لا يفصل المخلوق عن المعرفة والسبيل الوحيد كذلك
لوجود الفرد اجتماعياً ، لأن دوركم لا يؤمن بقيمة الفرد إلا إذا
آمنت الناس من حوله بما ينطق ويفكر . فأكثبه الأستاذ
الزيات ، وعزام ، والخلوي هو لسان المجتمع في هذا الموضوع
المبر الصادق عن المشاعر الخفية التي تكنها نفوس المصريين
أجمعين من حولهم ، فليكنف إذا هؤلاء الثائرون — اعتباراً —
عن آرائهم ، فالرجوع إلى الحق فضيلة

عبد العزيز عزت

خريج جامعات القاهرة وإريس ، وكليمون
عضو بثة الجامعة المصرية لكتوراه الدولة